المحاضرة الخامسة

نظرية الأدب والعلوم الأخرى 1

مقدمة:

صار واضحاً صلة النظرية الأدبية بالعلوم، ويبدو أن هذه التبعية للعلم التي ارتضاها النقد لها أسبابها فإن " محاولة إخضاع الظاهرة الأدبية، ومن ثم الحدث الأدبي لمناهج العلوم الطبيعية إنما كانت تعبيراً عن إدراك الإنسانيين لتخلف مناهج الدراسات الإنسانية بعامة، إذا هي قيست بمناهج العلوم الطبيعية وما أحرزته من تقدم في العصر الحديث، وعن رغبة أصحاب هذه المناهج الإنسانية في مجاوزة هذا التخلف باصطناع المناهج نفسها التي استخدمت في مجال الطبيعيات".

ونستطيع أن نتميز مجموعة من المناهج التي لا زالت مجاورة للأدب، فالنظرية الأدبية تنظر للعمل الأدبي من زوايا مختلفة أتاحتها لها العلوم المجاورة من الحقول الإنسانية منها:

أ- نظرية الأدب وعلم النفس

1- المنهج النفسي:

بدأ المنهج النفسي بشكل علمي منظم مع بداية علم النفس ذاته منذ مائة عام على وجه التحديد في نهاية القرن التاسع عشر بصدور مؤلفات (سيغموند فرويد) في التحليل النفسي وتأسيسه لعلم النفس، استعان في هذا التأسيس بدراسة ظواهر الإبداع في الأدب والفن كتجليات للظواهر النفسية.

رأى فرويد أن "العمل الأدبي موقع أثري له دلالة واسعة، ولابد من كشف غوامضه وأسراره، فالإنسان يبني واقعه في علاقة أساسية مع **رغباته المكبوتة ومخاوفه**، ويعبر عنها في صورة سلوك أو لغة أو خيال" ، ويرى أن "اللاشعور" أو "العقل الباطن" هو مستودع للرغبات والدوافع المكبوتة التي تتفاعل في الأعماق بشكل متواصل ولكن لا تطفو إلى مستوى الشعور إلا إذا توفرت لها الظروف المحفزة لظهورها، فالأدب والفن عنده ما هما إلا تعبير عن اللاوعي الفردي.

2- الأدب وعلم النفس:

العمل الفني والأدبي عند فرويد يتكون من محاولة إشباع رغبات أساسية، ولا تكون الرغبةُ رغبةً ما لم يحل بينها وبين الإشباع عائق ما: كالتحريم الديني والحظر الاجتماعي أو السياسي، ولهذا تكون الرغبة حبيسةً تستقر في اللاوعي من عقل الفنان أو الأديب، لكنها تجد لنفسها متنفساً من خلال صيغ محرفة وأقنعة من شأنها أن تخفي طبيعتها الحقيقية .

ويؤكد فرويد على أن **مرحلة الطفولة بكل انفعالاتها واضطراباتها تتفاعل في الداخل**، وهي التي تحدد سمات شخصية الإنسان، فإذا عانى الطفل شيئاً من الحرمان في هذه المرحلة؛ كانت هي المشكلة لأهم ملامح طريقته في السلوك وفي التصور، فإذا كان هذا الإنسان فيما بعد مبدعاً وشاعراً؛ أصبح

محكوماً بجملة تجاربه الطفولية تلك، والمرجعية الحقيقية لما يستخدمه من رموز يوظفها في عمله الإبداعي.

وقد عمد فرويد إلى تاريخ الأدب يستمد منه كثيراً من مقولاته ومصطلحاته في التحليل النفسي، فسمى بعض ظواهر العقد النفسية – مثلاً – بأسماء شخصيات أدبية، مثل عقدة "أوديب"، وعقدة "الكترا" وغيرها، كما لجأ إلى تحليل بعض اللوحات الفنية التشكيلية، وبعض الأعمال الأدبية والشعرية للتدليل على نظرياته في التحليل النفسي.

ولم تلبث مدارس علم النفس أن تطورت، ونشأت اتجاهات أخرى كان لها أثرها البالغ في اكتشاف جوانب غير فردية لربط العالم الداخلي بالإبداع الأدبي، من أهمها **مدرسة "كارل يونغ"** الذي نقل بحثه **من اللاشعور الفردي إلى اللاشعور الجماعي**، فالشخصية الإنسانية –في نظره –لا تقتصر على حدود تجربتها الفردية، بل تمتد لتستوعب التجربة الإنسانية للجماعة الموغلة في القدم، وأن هذه الشخصية تحتفظ في قرارتها بالنماذج والأنماط العليا التي تختمر في الثقافة الإنسانية عبر الأجيال المختلفة، وتنتقل على شكل رواسب نفسية موروثة عن تجارب الأسلاف، وتدخل هذه النماذج في تركيب طريقة التخيل الإنساني، وطريقة الشعور، وفي منظومة القيم، والفاعلية النفسية الإنسانية.

ثم ظهر تيار نفسي آخر كانت له أهمية خاصة في تحليل الإبداع الأدبي، وهو المتمثل في **مدرسة "أدلر" الرمزية**، وهي مدرسة تقرن بين الأحلام والرموز بشكل باهر، فقد أتاحت نظرية "أدلر" المجال للدارسين والنقاد الذين تأثروا بها النظر في عاهات المبدعين وعقدهم ونواقصهم، والربط فيما بينها وبين إبداعهم وتفسيرها في ضوء المعرفة المتحصلة عن الأديب أو الفنان.

وتجدر الإشارة إلى تيار نفسي آخر أسسه **الناقد "شارل مورون"** انتهى فيه إلى مصطلح "النقد النفسي"، من خلال تفسير النصوص بعضها ببعض، عن طريق وضع أعمال الأديب فوق بعضها، بغية الكشف عن جمالياتها، فيدرس الناقد هذه الأعمال وتجمعاتها وتطورها حتى يستطيع الوصول إلى الشخصية اللاشعورية للأديب، ثم التأكد من هذه النتائج من خلال حياته.

خاتمة:

إن التحليل النفسي في النقد والأدب برز فعلياً مع (فرويد) الذي يرى " أن العمل الأدبي موقع أثري له طبقات متراكمة من الدلالة ولابد بالتالي من كشف غوامضه وأسراره".

وجاء النقد النفسي بعده ليُعدّ أن التحليل النفسي علم ينبغي معرفته واستخدامه، ومع أنه يسعى إلى إشراك الأفكار اللاإرادية الواقعة تحت البنى المرغوبة في النص مشكلة بذلك شبكات لا مرئية، وهكذا فإن ضمان علم حقيقي يسمح بسبر وتقصي حدود الوعي واللاوعي عن طريق النزول إلى هذا الأخير، ولقد اصطدم النقد النفسي بانتقادات نظرية فقد أخذ عليه (علمويته) كما أنه يهتم بتحطيم استقلالية العمل، هذه المآخذ كما سنلاحظ يمكن توجيهها لأي منهج بنيوي.

ب- نظرية الأدب وعلم الاجتماع

مقدمة:

يعد هذا المنهج من المناهج العريقة لكثرة المدارس فيه، ويجد له امتداداً في القرن التاسع عشر في كتاب (مدام دي ستال 1880م) (الأدب من خلال علاقته بالمؤسسات الاجتماعية) فقد بدأ الأدب يعي بعده الاجتماعي، ويعد هذا الكتاب أول محاولة في فرنسا لجمع مفهومي الأدب والمجتمع في دراسة واحدة منهجية، وتحدد مدام دي ستال موقفها في المدخل بقولها " لقد عزمت على أن انظر في مدى تأثير الدين والعادات والقوانين في الأدب ومدى تأثير الأدب في الدين والعادات والقوانين". ومن مدارسه الواقعية، والواقعية الانتقادية، والواقعية الاشتراكية، والواقعيـــة الأوربية إلى غيرها من المسميات لنصل إلى ما عرف بسوسيولوجيا الأدب، وما عرف بالبنيوية التكوينية.

1- سوسيولوجيا الأدب:

علم الاجتماع الأدب أو سوسيولوجيا الأدب كما يحلو للبعض أن يسميه يهتم بالأدب كظاهرة اجتماعية مثلها مثل كثير من الظواهر الاجتماعية الأخرى فهو يدرس أركان الأدب الثلاثة الأديب والأثر الأدبي والقارئ بين الأدب والظروف الاجتماعية المحيطة به ، أو أنه يدرس الظاهرة الأدبية كظاهرة اجتماعية، وقد أثر علم الاجتماع الأدبي تأثرا كبيرا في الحركة النقدية والأدبية والعلمية، وكان له فوائد جمة فهو الأدب وطبيعته ووظيفته وتطوره .

ويتفق معظم الباحثين على أن الإرهاصات الأولى للمنهج الاجتماعي في دراسة الأدب ونقده بدأت منهجياً منذ أن أصدرت "**مدام دي ستايل**" **عام 1800م** كتابها "الأدب في علاقته بالأنظمة الاجتماعية"، فقد تبنت مبدأ أن الأدب تعبير عن المجتمع.

ويمكن عد التحليلات التي حواها كتاب الناقد "**هيبوليت تين**" في كتابه "تاريخ الأدب وتحليله عام 1863م، أحد أبرز التطبيقات الممثلة للمنهج الاجتماعي في دراسة الأدب وتحليله.

كما كان **للفكر المادي الماركسي** أثر في تطور المنهج الاجتماعي، وإكسابه إطاراً منهجياً وشكلاً فكرياً ناضجاً، ومن المتقرر في الفلسفة الماركسية أن المجتمع يتكون من بنيتين: دنيا: يمثلها النتاج المادي المتجلي في البنية الاقتصادية، وعليا: تتمثل في النظم الثقافية والفكرية والسياسية المتولدة عن البنية الأساسية الأولى، وأن أي تغير في قوى الإنتاج المادية لابد أن يُحدث تغيراً في العلاقات والنظم الفكرية، إذ أنه كلما ازدهر المجتمع في نظمه السياسية والحضارية والاقتصادية؛ ازدهر الأدب .

2- اتجاهاته علم الاجتماع الأدبي:

اتجاه التحليل الكمي ويرى هذا الاتجاه أن الأدب جزء من الحركة الثقافية، وأن تحليل الأدب يقتضي تجميع أكبر قدر من البيانات الدقيقة عن الأعمال الأدبية، فعندما نعمد إلى دراسة رواية ما؛ فإننا ندرس الإنتاج الروائي في فترة محددة، وبما أن الرواية جزء من الإنتاج السردي، فإننا نأخذ في التوصيف الكمي لهذا الإنتاج عدد القصص والروايات التي ظهرت في تلك البيئة، وعدد الطبعات التي

صدرت منها، ودرجة انتشارها، والعوائق التي واجهتها، ولو أمكن أن نصل إلى عدد القراء، واستجاباتهم، وغيرها من الإحصائيات الكمية؛ حتى يمكن لنا أن ندرس الظاهرة الأدبية كأنها جزء من الظاهرة الاقتصادية، لكنه اقتصاد الثقافة بمعنى أننا نستخدم فيها مصطلحات الإنتاج والتسويق والتوزيع، وكل ذلك نستخدمه لاستخلاص نتائج مهمة تكشف لنا عن حركة الأدب في المجتمع.

ومن رواد هذه **المدرسة** "**سكاربيه**"، صاحب كتاب "علم اجتماع الأدب"، وهو يدرس الأدب كظاهرة إنتاجية مرتبطة بقوانين السوق، ويمكن عن هذا دراسة الأعمال الأدبية من ناحية الكم.

ولكن ما لبث هذا المنظور أن تطور وارتبط بشكلٍ ما بالجانب الجمالي، نجد ذلك بارزاً في كتاب "حدود حرية التعبير" **للباحثة السويدية** "**مارينا ستاغ**"، فقد وظفت هذه الدراسة التقنيات الإحصائية والتجريبية في علم اجتماع الأدب بشكل مختلف عن السابق؛ فهي تختار ظاهرة محددة هي ظاهرة سقف الحرية التي يتمتع بها كُتَّاب القصة القصيرة على وجه التحديد في مصر في فترة حكمي عبد الناصر والسادات، وهي تتخذ منظورها من منطلقات منهجية حيث ترى أن الإبداع القصصي هو أكثر أشكال الإبداع ارتباطاً بحركة المجتمع، وأنه غالباً ما يصطدم بالممنوعات الاجتماعية وهي الممنوعات السياسية، والدينية، والأخلاقية .

اتجاه الواقعية الاشتراكية: ساد هذا الاتجاه في النقد الماركسي في الحقبة السوفياتية وترى هذه الواقعية أن مهمة النقد هي ترويج الفكرة الاشتراكية، ولتكون جزءاً من الصراع مع المجتمعات الرأسمالية، فالأدب جبهة من جبهات النضال، ومهمة الأدب كشف المضامين البرجوازية، والسخرية منها كما أن هناك " مهام للناقد هي تقييم العمل من زاوية شكليته الخالصة أو فضائله ونقائصه الاجتماعية".

وهو تحليل منتم إلى علم الاجتماع، ويعده عنصراً أشد ضرورة لذلك العمل، ويتخذ هذا الناقد "أولاً وقبل كل شيء **(مضمون)** العمل أي الجوهر الاجتماعي المتجسد فيه كموضوع لتحليله، وهو يحدد ارتباطه بهذه الفئات الاجتماعية، أو تلك وما لقوة التعبير فيه من تأثير على الحياة الاجتماعية، وعندئذ فقط يعود إلى الشكل، وقبل كل شيء يتناول طريقة تطابق الشكل مع الأهداف الأساسية للعمل أي وفاءه بمطلب التعبيرية والتأثير في درجاتهما القصوى".